

الاستشراق ودراسة التراث الإسلامي : من أهمّ الإيجابيات

د. العروسي الميزوري (*)

حظي موضوع الاستشراق باهتمام العديد من المفكرين والباحثين من مختلف الجنسيات والمعتقدات، وقد تباينت آراؤهم بخصوص هذا البحث من حيث الخلفيات والوسائل والنتائج وانقسموا تجاهه إلى ثلاثة اتجاهات : اتجاه أول اعتبر أنّ الاستشراق قدّم إيجابيات للبحث العلمي واتجاه ثان وصف مردود الاستشراق بالسلبية واتجاه ثالث اتّسم بالاعتدال فرأى في الاستشراق منحى إيجابياً وآخر سلبياً. وقد أثّرنا في هذا الإطار أن نبرز "أهمّ إيجابيات الاستشراق في دراسة التراث الإسلامي".

ويعزى اختيارنا هذا الموضوع إلى عدّة اعتبارات أهمّها ثلاثة تبدو، حسب وجهة نظرنا، على غاية من الأهمية. يتمثّل الاعتبار الأول في كون الاستشراق يعدّ ظاهرة فكرية حظيت بدراسات ومؤلفات ودوريات متعدّدة فنشأت في صلبه مدارس وجمعيات واتجاهات نحن في حاجة إلى الاطلاع عليها واختبار مميّزاتها النظرية والمنهجية. ويكمن الاعتبار الثاني في محاولة إدراك مدى مساهمة الاستشراق في إرساء

(*) مدير المعهد الأعلى لأصول الدين بتونس بجامعة الزيتونة.

مبدأ الحوار بين الشرق والغرب ونشر ثقافة الانفتاح والوفاق والتواصل بين حضارات الشعوب وثقافاتهما وهي مسائل من أوكّد حاجياتنا الثقافية الرّاهنة. أمّا الاعتبار الثالث موضعاً لا قيمة، فهو ما لاحظناه منذ سنوات بل منذ عقود من اتّجاه كثير من كتبوا عن الاستشراق إلى الاهتمام بالسّليبيّات والمبالغة في بعضها أحياناً، فرأينا أن الإنصاف والحقّ في العلم يدعوان إلى الاهتمام بالإيجابيّات حتى يكون عملنا مكملًا لما بلغته المسألة عند أهلها.

وقد اقتضت منهجيتنا أن يكون تخطيطنا متضمّنًا تحليل العناصر التالية :

- في تحديد المصطلحات
- من صعوبات إثارة مسألة دراسة إيجابيّات الاستشراق.
- من أهمّ إيجابيّات الاستشراق في دراسة التراث الإسلامي.

1 - في تحديد المصطلحات :

أ - الاستشراق :

عرف الاستشراق عبر التاريخ عدّة دلالات أهمّها :

- الاستشراق يعني الاهتمام بالشرق وما يتعلّق به : ويمكن تسمية المرحلة التي ساد فيها هذا المفهوم بالطّور التكويني (1) وقد سمّاها البعض : مرحلة الاستشراق الدّينية (2). وترجع الأصول الأولى لهذا الطّور إلى قدماء اليونان أمثال هيرودوت (Hérodote) وسترابون (Strabon). ويمتد هذا الطّور إلى قيام الحروب الصليبيّة عندما أدرك

(1) سميلوفتش أحمد : فلسفة الاستشراق، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص 71.

(2) ساسي سالم الحاج : الظّاهرة الاستشراقية وأثرها في الدّراسات الإسلاميّة، مركز دراسات العالم الإسلامي، الجزء 1، الطبعة الأولى، 1991، ص 37-48.

الغرب أنّ العرب استطاعوا أن يتخلّصوا من جاهليّتهم ويكوّنوا لأنفسهم شخصيّة مستقلّة قوامها طلب العلم والسير في سُلّمِي الحضارة والرقي. لقد برزت أشياء كثيرة في كلّ من قرطبة وطليطلة وبغداد وفاس والقيروان وغيرها تكشف عن ذلك وتثبّته. وقد ظلّت معرفة الإسلام وواقع الدّول الإسلاميّة خلال هذا الطّور محدودة لدى الغربيّين رغم توقّر بعض معطيات جاءت في قالب قصص ظرفيّة لمسيحيّين كانوا قد عاشوا في بلاد الشّرق والأندلس تحت السّيّطرة الإسلاميّة فضلا عن مواقف مذهبيّة إسلاميّة أوردها "جان دامسان" (Jean Damascène) ولاهوتيّون بيزنطيّون خلال دحضهم الإسلام (3). وقد وصلت هذه المعلومات إلى الكنيسة الرومانيّة مبرزة معاملة المسلمين للمسيحيّين في مناطق النّفوذ الرّوماني وخارجه (4). لقد كانت هذه المعرفة محدودة ومزوجة بعناصر نابغة من الخيال الدّيني اعتبر فيها المسلمون مصدر خطر بالنّسبة إلى أوروبا (5).

- الاستشراق يعني دراسة الحضارة العربيّة الإسلاميّة : خيم هذا المفهوم على العقليّة الغربيّة منذ قيام الحروب الصليبيّة وامتد حتى بداية العقد الأخير من القرن الخامس عشر للميلاد. وقد جاء هذا المفهوم نتيجة تأكّد الغربيّين واقتناعهم بأنّ الحضارة الإسلاميّة جديرة بالدراسة. لقد أصبحت رغبة هؤلاء جامحة في معرفة علوم العرب وتفهم حقيقة دينهم أي دراسة الإسلام وحضارته. وتجسيما لذلك، راح هؤلاء يتعلّمون اللّغة العربيّة ويترجمون القرآن ومؤلّفات في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة والأدب (6).

(3) (4) (5) Mustashrikun in : Encyclopédie de l'Islam, E.J. Brill, Maisonneuve et Larose S.A, Paris, Nouvelle Edition, 1993, Tome 7, p 736-738.

(6) سميلوفيتش أحمد : فلسفة الاستشراق، ص 74.

- الاستشراق يعني دراسة حضارة العالم الإسلامي : ارتبط هذا المفهوم بالتحوّلات الجديدة التي حدثت بعد الاكتشافات الجغرافية وتطوّر أوروبا بالأخصّ من النّاحية الاقتصادية خلال نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السّادس عشر للميلاد. لقد شعر الأوروبيون منذ مطلع القرن السّادس عشر للميلاد أنّهم في حاجة أكيدة إلى تجديد معرفتهم بالإسلام وحضارته المنتشرة في فضاء أصبح ممتدا من المحيط الأطلسي إلى الهند والصّين واليابان وإندونيسيا (7). لقد اعتمد هؤلاء في دراستهم العالم الإسلامي على رحالة تمّ توظيفهم في أغراض مختلفة : علميّة وسياسيّة وعسكريّة وإداريّة ... فنتج عن ذلك أن اتسع مفهوم الاستشراق وبرز مصطلح الاستعراب Arabisation ليختصّ بدراسة اللّسان العربي وحضارة العرب (8). غير أنّه، ولئن اهتم باحثون من الغرب بدراسة الشّرق منذ أمد بعيد، فإن استعمال مصطلح "استشراق" لم يصبح متداولاً إلّا خلال النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر للميلاد إذ تمّ استعماله في اللّغة الإنجليزيّة سنة 1779 م وفي اللّغة الفرنسيّة سنة 1799 م للدّلالة على الاهتمام بالثقافة الشّرقية. وفي القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين للميلاد، أصبح للاستشراق معنيان : أحدهما ثقافي عام والثّاني أكاديمي مختص. وكانت عبارة "المستشرقين الثقافيين" تطلق على أولئك الذين يستمدون إلهامهم من الشّرق بما في ذلك الرّسّامون والكتّاب. أمّا عبارة "المستشرقين الأكاديميين"، فقد كانت تعني المختصّين في العلوم والثّقافات الشّرقية وذلك لتمييزهم عن الباحثين "الكلاسيكيين" المختصّين في اللّغات والثّقافات الكلاسيكيّة التي تعني عندهم آنذاك اللّاتينية واليونانيّة. لقد تغيّر مفهوم "المستشرق" في مجال الإسلام وفي غيره من المجالات منذ بداية القرن التّاسع عشر وقد تمّ ذلك التغيّر في

(7) (8) العليان عبد الله : الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ص 12.

مستويات عديدة : لقد كانت عبارة "مستشرقون" تعني في السابق علماء من غير المسلمين اختصّوا في دراسة الإسلام. أما بداية من القرن التاسع عشر للميلاد، فقد وجد علماء غربيّون من ذوي الديانة الإسلامية كما وجد علماء من غير المسلمين خارج الغرب ذاته وعلماء مسلمون في مجال الاستشراق داخل البلدان الإسلاميّة وخارجها. وإذا كان الغرب والعالم الإسلامي قد مثلا سابقا فضاء ين جغرافيين مختلفين، فإنّهما اليوم يعيشان في تداخل إذ أصبحت عدّة جاليات عربيّة تعيش في بلدان غربيّة. لقد كان الاستشراق يعني مجموعة مستشرقين مختصّين غالباً في اللّغات الشّرقية بتقاليد راسخة لا وجه فيها للتّجديد. غير أن العقود الأخيرة شهدت ظهور مختصّين في مجالات معرفيّة أخرى انصرفوا بصورة تدريجيّة إلى البحث في المجتمعات والثّقافات الإسلاميّة فظهر عندهم الاهتمام بتاريخ المجتمعات وتطوّر الإنسان وعلم الاجتماع ومجالات الأدب والفن والدين وغيرها...⁽⁹⁾. هكذا تطور مفهوم الاستشراق من الدّلالة على علماء في لغات الشّرق وأدبه وتاريخه إلى دلالة تفيد ممثلي جميع المباحث العلميّة المساهمة في معرفتنا بالمجتمعات والثّقافات الإسلاميّة وهو المعنى السائد في الغالب حالياً.

ب - التّراث :

التّراث لغة هو ما يخلفه الرّجل لورثته وأصله ورث أو وراث حسب الجوهرية فأبدلت الواو تاء فأصبحت الكلمة تراثاً⁽¹⁰⁾. ويرى ابن الأعرابي أن التّراث والإرث والوراث هي كلمات مترادفة⁽¹¹⁾. وتعني كلمة "تراث" في اللّغة العربيّة الميراث وهو يشمل المال والاحتساب⁽¹²⁾. والمراد من قوله تعالى : "يرثني ويرث من آل

(9) Mustashrikun in : Encyclopédie de l'Islam , Tome 7, pp 736-737.

(10) (11) (12) - ابن منظور : لسان العرب ، المجلد الثالث، ص 907.

- العمري أكرم ضياء : التراث والمعاصرة، كتاب الأمة، الطبعة الثانية، 1987، ص 26.

يعقوب" (مريم، آية : 6) هو وراثه النبوة والعلم والفضيلة دون المال لأن المال ليس مدعاة للتنافس عند الأنبياء (13). أمّا المقصود من قوله تعالى : "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير" (فاطر، آية : 32)، فهو وراثه الاعتقاد والإيمان بالكتب المنزلة قبل القرآن (14). وقد أطلق الصّحابي أبو هريرة كلمة الميراث على التّراث العقائدي والثّقافي بقوله : "أنتم هنا وميراث محمد ﷺ يوزّع في المسجد" (15).

وقد اعتبر بعض الباحثين أن التّراث هو جذور الأمّة ومكوّنات شخصيّتها ومسارها الحيوي عبر الزّمان والمكان، فهو القاعدة والمنطلق ونسيج وجود كلّ أمّة. ولا يمكن للإنسان أن يتنكّر لماضيّه ومكوّناته الأولى (16)، فهو أي التّراث تاريخ يستمرّ حضورياً في حياتنا المعاصرة ولا يمكن أن نتجنّبهُ إلّا إذا فرضنا على أنفسنا الاغتراب والاستلاب. وقد اعتنى علماء الاستشراق بالتّراث الإسلامي وأقبلوا على دراسته فتطرّقوا إلى كل ناحية من نواحيه وعالجوا كلّ أمر ذي شأن في الدّين الإسلامي وحضارته.

2 - من صعوبات إثارة مسألة إيجابيّات الاستشراق :

يعد البحث في إيجابيّات الاستشراق من المسائل العسيرة لأسباب عديدة أهمّها :

(13) الأصفهاني الرّأغب : المفردات في غريب القرآن، ص 519.

(14) تفسير الطبري، الجزء الثاني، ص 132.

(15) الهيثمي : مجموع الزوائد، الجزء الأول، ص 123.

(16) خليل عماد الدّين : في التّاريخ الإسلامي، فصول في المنهج والتحليل، المكتب الإسلامي، الطّبعة الأولى، 1981، ص 49.

أ - اتّسع حيز الاستشراق التّاريخي ومروره بأطوار من الزّمن كانت مجال ضروب من علاقات سياسيّة وعسكريّة وثقافيّة ومعرفيّة تباينت بحسب معطيات كلّ عصر سواء تعلّق ذلك بأهل المشرق أو بأهل المغرب.

ب - اتّسع الحيز الجغرافي الذي نشط فيه الاستشراق: تكتنف دراسة الاستشراق على أساس جغرافي صعوبة بالغة نتيجة تعدّد المدارس الاستشراقية من جهة وتنوّع اهتمامات كلّ مدرسة من جهة أخرى، فقد اعتنت المدرسة الفرنسيّة بحضارات الشّرق المختلفة عامّة وبحضارة الهلال الخصيب خاصّة ثم بإفريقيا الشماليّة كلها وبمختلف الدّول الإسلاميّة عموماً (17). وامتد اهتمام المدرسة الإنجليزيّة إلى حضارات الجزيرة العربيّة ومدنيّات الأقطار التي ارتبطت بها بريطانيا بشكل أو بآخر (18). واهتمت المدرسة الألمانيّة بالشّرق كلّ خلال عصوره القديمة والحديثة إذ لم تكن للألمان مستعمرات خاصة بهم (19) واختار المستشرقون الرّوس أن يكون مجالهم العلمي آسيا الوسطى وما يتعلق بحضاراتها القديمة والحديثة وعلاقاتها بالحضارة البيزنطيّة التي أسهمت في تكوين العقليّة الروسيّة بقدر كبير. وقد توسّع نطاق المجال العلمي لدى هؤلاء خلال السنوات الأخيرة إذ اهتمّوا بالعالم العربي واتّجاهاته الحديثة ومشاكله المعاصرة (20). وانصرف نشاط المدرسة الإيطاليّة الذي تمركز في "الفاتيكان" Vatican إلى الكتب السماويّة وما يمت بصلة بهذه الكتب من بلدان الهلال الخصيب ولا سيّما فلسطين ومصر والعراق فضلاً عن دراسة آثار العرب في صقلية وإفريقيا الشماليّة (21). واهتمت المدرسة الإسبانيّة بالحضارة العربيّة اهتماماً بالغاً بالتّراث والحضارة العربيين في إسبانيا

(17) (18) (19) (20) (21) سميلوغيتش أحمد : فلسفة الاستشراق، ص 222 _ 229.

وفي المغرب (22). أمّا المدرسة الأميركية التي تعدّ حديثة العهد نسبياً إذ كانت نواتها مؤلفة من المهاجرين الأوروبيين والشّوام، فقد اهتمت على وجه الخصوص بواقع الشّرق الحديث (23).

وعلاوة عن هذه المدارس، يمكن أن نضيف المدرسة السكندنافية والتيارات المتصلة بالمدرسة الروسية وبعض روافد المدرسة الألمانية مثل هولاندا (24).

ج - اختلاف طبيعة تكوّن المستشرقين وتفاوت حظوظهم من المعرفة وتباين منطلقاتهم وتعدّد مناهج عملهم : وقد نتج عن ذلك أن جاءت المؤلفات الاستشراقية متّسمة بنزعات متعدّدة أهمّها: النزعة التفوقية والنزعة التحليلية والنزعة التخصصية والنزعة اللاهوتية والنزعة السياسية أي حسب قناعات كلّ مستشرق العقديّة والتاريخية والثقافية فأضحى من العسير جدّاً التّمييز بين ما هو موضوعي وما هو إيديولوجي.

وقد حاول بعض الباحثين (25) تحديد مواطن هذين المنحيين فأروا أنّ الجانب الإيديولوجي قد خيّم على قضايا العقيدة والقرآن والسنة والنّظرة إلى منظومة الدّين الإسلامي عمومًا. أمّا المنحى الموضوعي، فقد حصّره في الحقول العلميّة البحتة من مخطوطات ونشر وثائق ومعاجم وفهارس وتحقيق نصوص وغير ذلك من الأعمال البحثية المتّصلة بالحقول العلميّة المتخصّصة (26).

د - اتّساع مجالات الاستشراق وتداخل التخصصات : أصبح الاستشراق علمًا له كيانه ومنهجه ومدارسه وفلسفته وتقاليده ومؤلفاته

(22) (23) (24) سميلوغيتش أحمد : فلسفة الاستشراق، ص 222 - 229.

(25) (26) العليان عبد الله : الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف، ص 24.

وأغراضه وأتباعه ومعاهده ومؤتمراته، فهو مؤسسة علمية قائمة بذاتها اعتنت بدراسة تراث الشرق عامة والتراث العربي الإسلامي خاصة. لقد اهتمت هذه المؤسسة بمختلف فروع التراث الإسلامي المتمثلة في الإسلام والقرآن والحديث النبوي والرسول ﷺ والفقهاء الإسلامي والعرب وتاريخهم وفلسفة العربية الإسلامية والحضارة العربية الإسلامية وعلوم العرب وفنونهم وسائر ما يتصل بلغتهم وأدبهم. لقد اهتم المستشرقون إذن بمختلف مجالات الحضارة الإسلامية تراثاً حضارياً وموروثاً دينياً فطبّقوا منهجية غربية تقوم على إخضاع مختلف مجالات العلوم الإسلامية لمناهج العلوم الإنسانية مثل اللسانيات والأنثروبولوجيا والفينومولوجيا (Phénoménologie) والفيلولوجيا (Philologie) بما أدى إلى بروز حقل متكامل المعارف يتمثل في المواءمة بين المنهج والموضوع ويسعى هذا الحقل إلى التجديد في مستوى الفكرة والاستنتاج مستعملاً الوسائل النقدية والاستدلالية والتحليلية والتعليلية خاصة في مجالات علم الأديان الذي يتفرّع إلى علم الاجتماع الديني وعلم النفس الديني وعلم الدين المقارن وتاريخ الأديان والمذاهب الدينية والأنثروبولوجيا الدينية (27). ويلاحظ متدبر مختلف هذه المسائل أن هذه العلوم تستوجب إطاراً متعدّد التخصصات وهو أمر نادر التوفر في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة.

هـ - تعدّد وجوه نقد الاستشراق واختلاف مصادره وطبيعته منذ بداية القرن التاسع عشر للميلاد على وجه الخصوص: لقد اتخذ هذا النقد عدّة أشكال أهمّها :

(27) Mustashrikun in : Encyclopédie de l'Islam ,Tome 7, p 746-747-749-750.

- الجدل الحاد الذي جرى بين بعض المستشرقين الغربيين وبعض علماء الإصلاح في العالم الإسلامي : جمال الدين الأفغاني ضدّ "أرنا ست رينان" (Ernest RENAN) (ومحمد عبده ضدّه "هوناتو" (Hanotaux)).

- الصّراع بين سلفيي الإصلاح الإسلامي من الأزهريين وأنصار الحداثة من المتأثرين بالغرب وعلمانيّته. ويمكن على سبيل المثال إيراد الصّراع الذي قام بين شيوخ الأزهر من جهة وطه حسين ومحمد حسين هيكل من جهة أخرى.

- ردود الفعل النقدية القويّة الصّادرة عن علماء العرب إزاء دراسة القرآن والحديث من زاوية غربيّة ومثال ذلك نقد مصطفى السّباعي ومحمد الغزالي لكتابات "جولدزيهر" (Goldziher) بعد الحرب العالميّة الثّانية.

- التّنديد بالمستشرقين الذين خاضوا صراعًا ضدّ الإسلام والمجتمعات الإسلاميّة قصد خدمة الاستعمار والبعثات التبشيريّة وبعض النزعات اليهوديّة والوثنيّة. ويمكن على سبيل المثال ههنا ذكر عمر فروخ وأنور الجندي وهو ما آل إلى اعتبار الاستشراق مضادًا للإيديولوجيا الإسلاميّة وهو ما حاد بدراسة الاستشراق عن وجهتها العلميّة ونحا بها منحى إيديولوجيا (28).

3 - من أهم إيجابيات الاستشراق في دراسة التراث الإسلامي :

والواقع أن نتائج الاستشراق قد استعملت في مجالات متعدّدة ومن زوايا مختلفة لم تكن دائمًا محصورة في الميدان العلمي. غير أنّ طبيعة

(28) Mustashrikun in : Encyclopédie de l'Islam ,Tome 7, p 746-747-749-750.

بحثنا تفرض علينا، خلال تناولنا إيجابيات الاستشراق الاقتصار على ما كان ذا صلة وطيدة بالبحث العلمي. ومن هذا المنطلق، قمنا بتصنيف هذه الإيجابيات على النحو التالي :

- إيجابيات تخصّ التراثين العربي والإسلامي :

وهي تتمثل أساساً في :

- المساهمة في إثراء التاريخ الجاهلي :

لقد استطاع المستشرقون أن يدقّقوا مصادر التاريخ الجاهلي وأن يبرزوا جذوره اعتماداً على المقابلات والمطابقات ونقد الروايات والاستفادة من المصادر العربية والأجنبية والآثار والنقوش المغمورة في مناطق الجزيرة العربية المختلفة. لقد اكتشف هؤلاء خطّ المسند القديم واستخلصوا ما جاء فيه من مسائل ذات علاقة بتاريخ العرب قبل الإسلام. وقد ساعدتهم في ذلك معرفتهم بعدد اللغات الشرقية القديمة كالعبرية والسريانية والبابلية وزيارة المنطقة في إطار الرحلة أو السّياحة أو الاكتشافات. ويمكن أن نذكر، في هذا الإطار، كلاً من "نيبور" Neibaur الذي لفت نظر العلماء إلى المسند والرقم العربي و"توماس جوزيف أرنود" (Thomas Joseph Arnaud) الذي استطاع أن يستنسخ ستّة وخمسين نصّاً كتابياً قديماً و"جوزيف هاليفي" (Joseph Halevy) الذي تمكّن من إحضار ستّمائة وثمانٍ وستين نقيشة ونشرها في المجلة الآسيوية (29).

- جمع المخطوطات وتحقيقها وتنظيمها وصيانتها وفهرستها فهرسة علمية حيث الوصف الدقيق للمخطوط والإشارة إلى ما يتضمّنه من

(29) ساسي سالم الحاج : الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ص 113 - 114.

موضوعات وذكر مؤلفه والفترة التي عاش فيها هذا الأخير وتحديد تاريخ تأليف كل مخطوط أو نسخه أو وضعه في المكتبات العامة وهي معلومات تسهّل عمليّة كلّ باحث في مختلف بقاع العالم. وفي هذا الإطار، يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر، الفهرس الذي أعدّه "ولهيلىم بريتش" (Wilhelm PERTSCH) خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1973 م و 1892 م، في خمسة مجلّدات تضمّنت 2726 مخطوطاً (30) وفهرس المخطوطات العربيّة الموجودة بالمكتبة الوطنيّة الفرنسيّة بباريس والتي تمّ تجميعها خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1884 م و 1924 م والتي بلغ عددها 2088 مخطوطاً عربيّاً (31).

- المساهمة في تّمين التّراث الإسلامي : لقد حاول المستشرقون إبراز قيمة التّراث الإسلامي الفكريّة والثّقافيّة، فهم لم يتركوا جانباً من آثار هذا التّراث المتعدّدة إلا وتتبعوا منبعه وقدرّوا قيمته وحدّدوا أصالته. ويمكن اعتبار أحكام بعض المستشرقين المعياريّة المتعلّقة بالرّسول محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن والحديث وغير ذلك بمثابة المواجهة الصّريحة بين علماء الاستشراق وأصحاب التّراث، فقد أدّى هذا الأمر إلى إيقاظ الوعي لدى المسلمين الذين وجدوا أنفسهم مضطّرين إلى مراجعة أحكام المستشرقين والتأكد من صحتها أو خطئها وهو لعمري مظهر من مظاهر الحوار الحضاري الذي ما انفكت تعمل مختلف المؤسسات البحثيّة في العالم على إرساء دعائمه.

(30) (31) أنظر في هذا الإطار : - العليان عبد الله: الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف، ص 43 - 44.

- سميلوفيتش أحمد : فلسفة الاستشراق . ص 549 - 562.

ب - إيجابيات ذات اتصال بالثقافة الغربية :

وهي تتمثل بالخصوص في :

- تعريف الغرب بالتراثين العربي والإسلامي وذلك من خلال ترجمة المستشرقين لبعض مؤلفات عربية وإسلامية إلى لغات مختلفة وخصّ فكر بعض العلماء المسلمين بالبحث. ويمكن أن نذكر في هذا الإطار، مؤلفات ابن سينا (370 هـ / 980 م - 428 هـ / 1037 م) التي أصبحت معروفة في أوروبا منذ سنة 1180 م. ويعد الإسباني "دومغو غونزالز" (Domingo GONZALEZ) والإيطالي "جيرار دي كريموني" (Gérard de CREMONE) من أبرز مترجمي القرن الثاني عشر للميلاد إذ إليهما تنسب ترجمة أكثر من سبعين كتاباً محرراً باللغة العربية⁽³²⁾.

- توسيع آفاق الثقافة الغربية ويمكن توضيح ذلك من خلال الحرص الذي أبداه بعض المستشرقين على المعرفة بثقافة العرب ولغتهم منذ العصور الوسطى. وفي هذا الإطار، تفيدنا مجلة "المشرق" بتاريخ 15 نوفمبر 1901 أن الأحرار الرومانيين كانوا قد قرّروا دراسة اللغة العربية وآدابها في مؤسساتهم منذ القرن الثالث عشر للميلاد⁽³³⁾. غير أنّ هذا القرار لم ينفذ إلاّ مدّة قصيرة من الزمن⁽³⁴⁾. وفي إسبانيا، أبدى "ريمون لول" (Raymond LULLE) رغبته في إبراز حقيقة المسيحية للمسلمين اعتماداً على الحوار السلمي والبرهنة المنطقية. وتجسيماً لذلك، أسس مدرسة لتدريس اللغة العربية للمبشرين بالمسيحية مستقبلاً. وقد أدّت هذه المؤسسة مهمتها خلال الفترة الممتدة من سنة 1276 م إلى سنة

Mustashrikun in : Encyclopédie de l'Islam ,Tome 7, p 739 (32)

(33) (34) هنري لامنس : درس العربية في أوروبا، مجلة "المشرق" 15 نوفمبر 1901.

1294 م (35). واللافت للنظر في هذا السياق نفسه أنّ تدريس اللغة العربية في أوروبا لم يصبح مؤسساتيا إلا بناء على إصدار مجمع فينا (Vienne) الكنسي قراراً في سنة 1311 م يقضي بتأسيس عدد من كراسي للغات الشرقية في جامعات باريس وأكسفورد ووبولونيا وأفينيون (Avignon) وسلامانكا (Salamanka). وقد شمل إحداث هذه الكراسي كلاً من اللغة العربية واللغة اليونانية واللغة العبرية واللغة السريانية (36). هذا، وقد قدر عدد الأشخاص الذين لهم معرفة باللغة العربية في أوروبا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد بأقل من عشرين شخصا (37).

وفي سنة 1519 م، دعا ملك فرنسا "فرانسوا الأول" (François) الأستاذ "بولس بوستينا" إلى تدريس العربية والعبرية في عاصمة مملكته ولكنه لم يبق في وظيفته إلا عامين ثم عاد إلى موطنه ولم يخلفه أحد (38). وفي سنة 1539 م، تمّ إحداث أول كرسي للغة العربية في باريس في معهد فرنسا Collège de France (39). واعتبر الهولنديون أنّ المعرفة باللغات الشرقية مطلباً حياتياً. وتبعاً لذلك، شرع "فرنسيس رفالانجيوس" (Franciscus RAPHALENGIUS) في تدريس اللغة العربية إلى جانب اللغة العبرية بجامعة "لايد" (Leyde) سنة 1593 م كما تمّ إحداث كرسي للغة العربية بهذه الجامعة في سنة 1599 م (40). وفي أواخر القرن السابع عشر للميلاد، بدأ تدريس اللغة العربية في الغرب يأخذ أبعاداً متقدمة إذ اشتهر في جامعة "أكسفورد" و "كامبريدج" (Cambridge) عدد من المتخصصين في اللغة العربية وآدابها مثل

(35) (36) (37) Mustashrikun in : Encyclopédie de l'Islam ,Tome 7, p 738

(38) سميلوفيتش أحمد : فلسفة الاستشراق ، ص 57.

(39) (40) Mustashrikun in : Encyclopédie de l'Islam ,Tome 7, p 741

"صموئيل كلارك" (Samuel Kларке) (1729 - 1675) الأمر الذي جعل هاتين الجامعتين تؤسسان منصيين جديدين للغة العربية⁽⁴¹⁾. وفي القرن التاسع عشر للميلاد، أنشئت منابر لتدريس اللغة العربية في أشهر جامعات روسيا مثل جامعة "كازان" (Kazan) في سنة 1807م وجامعة موسكو في سنة 1811م وجامعة بترسبورج Petersburg في سنة 1818م⁽⁴²⁾.

- تصنيف مستلزمات البحث العلمي في اللغة العربية وبالتّالي الحضارة الإسلامية. ومن أهمّ الأمثلة في هذا المجال ما تمّ في جامعة "ليد" (Leyde) حيث وضع فرنسيسكوس رافالانجيوس (Franciscus Raphalengius) 1539 - 1597 معجما عربيا (Lexicom arabicom) نشر بعد وفاته سنة 1613م وقام توماس أربينوس (Thomas Erpinus) في السنة نفسها بنشر مصنف عن النحو العربي (Grammatica arabica). وقد استمر العمل بهذا المصنف مدّة قرنين من الزمن. وجاء بعد ذلك يعقوب غوليوس (Jacob Golius) (1596 - 1667) فنشر سنة 1653م معجما عربيا لاتينيا. وقد تمّ توجيه "غوليوس من قبل فرانسوا الأوّل" إلى المشرق لشراء مخطوطات فعاد بما يقارب ثلاث مائة مخطوط بين عربيّة وفارسيّة وتركّيّة⁽⁴³⁾. وقد أوصى العالم "لوفينوس فرنر" (Levinus WANER) (1619 - 1665) بأن تعطى مكتبته إلى جامعة "ليد" (Leyde) بعد وفاته وهي تتكوّن من قرابة ألف مخطوط شرقي وبذلك غدت هذه الجامعة قبلة جل المهتمّين بالبحوث العربية⁽⁴⁴⁾.

Mustashrikun in : Encyclopédie de l'Islam ,Tome 7, p 741 (42) (41)

Ibid, p 741 (46) (45) (44) (43)

وفي أواخر القرن السّابع عشر للميلاد، ظهر معجم عربي/فارسي/تركي في ثلاث أجزاء نشره "فرانز منانسكي" (Franz MENINSKI) فضلا عن ترجمات القرآن التي نشرت أوّل طبعة عربيّة لها سنة 1694 م على يد الألماني "أ. هنكلمان" A. HINCKEL(MANN). وقد عدت هذه الترجمة نموذجًا في هذا المجال (45). وإلى جانب ذلك، يمكن أن نذكر طائفة من الكتب القيمة التي تمّ نشرها مثل كتاب "الشّفاء" لابن سينا في روما سنة 1593 م وكتاب "العهد الجديد" بالعربيّة سنة 1622 م (46).

ج - إيجابيات ذات اتصال بالتعامل الثقافي بين الشرق والغرب :

والأصل فيها أنها تساهم بالأساس في مدّ الجسور بين الشرق والغرب بفضل ما تتيحه من تعايش بين الثقافات والحضارات بواسطة المعرفة الأوسع والأدق بثقافة الغير وما يتّصل بها. ويقوم هذا النوع من الإيجابيات على ما يلي :

- مؤسّسات علميّة وجامعيّة مختصّة: وتجسيماً لهذا المشروع الحضاري قامت عدّة دول أوروبية بإحداث مؤسّسات بحثيّة على أرضها وفي مناطق مختلفة من العالم الإسلامي. ولنا في هذا المجال عدّة أمثلة: فقد أنشأت فرنسا سنة 1795 م بباريس "المعهد الخاص باللّغات الشرقيّة" الذي أصبح يحمل، في سنة 1914 م، اسم "المعهد الوطني للّغات الشرقيّة الحية" ثم اسم "المعهد الوطني للّغات والحضارة الشرقيّة" منذ سنة 1971 م (47). وعلاوة عن ذلك، أسّست فرنسا بدمشق معهدين:

Ibid, p 741 (46) (45)

Ibid, p 741 (47)

الأول في سنة 1929 م وهو معهد تابع لجامعة باريس يحمل اسم "معهد الدراسات الإسلامية". أما الثاني، فقد تمّ إنشاؤه سنة 1930 م وأطلق عليه اسم "المعهد الفرنسي للدراسات الإسلامية". كما أحدثت مؤسسات بحثية في كلّ من الجزائر وتونس والمغرب (48). وفي ألمانيا بدأت الدراسات الشرقية تتطوّر منذ منتصف القرن التاسع عشر للميلاد وكانت اللغة العربية تدرس بجامعات أصول الدين. وفي سنة 1845 م، تمّ إحداث "المؤسسة الألمانية للبحوث الشرقية" (La Deutsche Gesellschaft Morgenland التي جمعت كلّ المستشرقين الألمان (49). وفي إنجلترا، كانت الدراسات الشرقية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد متأثرة بواقع البلدان الإسلامية والدراسات الأكاديمية للغة العربية متمركزة في جامعات "كامبريدج" و"أكسفورد" و"إيدنبورغ" (Edimbourg) عملاً بتقاليد قديمة. ومن أجل دعم مجال الاستشراق، أسّست إنجلترا عدّة مؤسسات أكاديمية بالمشرق الإسلامي شملت كلّاً من مدينة أنقرة وعمان وبغداد وطهران (50).

- بعث دوريات علمية خاصة بالعالمين العربي والإسلامي: تفيدنا في هذا الإطار بعض المراجع (51) أن عدد الدوريات الفرنسية المختصة أو التي تقوم بنشر مقالات حول العالم العربي قد بلغ خمساً وثمانين دورية في سنة 1985 م اختص بعضها بدراسة العالم العربي مثل "أرابكا" (Arabica) و "المغرب الكبير" (Grand Maghreb) و "المغرب - المشرق" (Maghreb-Machrek) وتناول بعضها الآخر العالم الإسلامي مثل "مجلة الدراسات الإسلامية" (Revue des Etudes Islamiques)

(47) (48) (49) Ibid, p 744-745.

(51) (52) MIQUEL André et autres : Mille et un livres sur le monde arabe, Editions de la Maison des sciences de l'homme avec le concours de l'Institut du monde arabe, Paris, 1985, p235.

ومجلة "دراسات إسلامية" (Studi islamica)، واهتم بعض آخر أيضا من هذه الدوريات بالفضاء المتوسطي والعالم الثالث مثل مجلة "آفاق متوسطة" Perspectives Méditerranéennes ومجلة "أسواق متوسطة واستوائية" (Marchés tropicaux et méditerranéens) (52).

- تأليف دائرة المعارف الإسلامية : بدأت "دائرة المعارف الإسلامية" تظهر تباعاً خلال الفترة الممتدة من سنة 1913 م إلى سنة 1934 م. ويعدّ هذا العمل العلمي نتاج جهد علماء الاستشراق في العالم بأسره. فهو يحيط بكلّ ما يتعلّق بالإسلام والعرب والقرآن إذ يتضمّن مباحث ذات اتّصال وثيق ببلدان العالم الإسلامي وشعوبه وآدابه ولغاته وأعلامه وأحداثه التاريخية وأوضاعه الاجتماعية ومسائله الفكرية والأدبية والثقافية وغيرها... وبالرغم من صدور دائرة المعارف هذه بلغاتها الأصلية الإنجليزية والألمانية والفرنسية، فإنّ العرب قد أقبلوا على ترجمتها بشغف إلى العربية وهذا من شأنه أن يعزّز الحوار والتّعايش بين الثقافات والحضارات (53).

- تشريك مسلمين في مؤتمرات الاستشراق : تفيد بعض المراجع أن المستشرقين عقدوا مؤتمرهم الأوّل سنة 1873 م بباريس واحتفلوا بمرور مائة سنة على إنشاء هذا المشروع في شهر جوان سنة 1973 واغتنموا هذه الفرصة فأوصوا بتأسيس اتّحادات جديدة وفرعية واتّحاد للغات القديمة يكون مقرّه القاهرة واتّحاد للدراسات الإسلامية وآخر للدراسات الهندسيّة. وكان علماء من العرب قد حضروا خلال القرن

(52) MIQUEL André et autres : Mille et un livres sur le monde arabe, Editions de la Maison des sciences de l'homme avec le concours de l'Institut du monde arabe, Paris, 1985, p235.

(53) سمائلوفيتش أحمد : فلسفة الاستشراق، ص 567.

العشرين فعاليات عدة مؤتمرات استشرافية وقدموا بحوثهم أمام أعضائها وشاركوا في أعمالها وناقشوا مسائلها. وقد حضر أكثر من مرة مثل هذه المؤتمرات كل من كرد علي وأمين الخولي وإبراهيم مذكور وغيرهم (54)....

والحاصل أنه على الرغم من التباين في تحديد مفهوم الاستشراق وأطواره بصورة ثابتة، فإنّ الدلالة الغالبة على مختلف الآراء التي ناقشت الاستشراق وتتبع معطياته ومجالاته هي دراسة الشرق وحضارته من مختلف الجوانب. وإنّ المتأمل في نتاج المستشرقين، يدرك مدى مساهمة هؤلاء في تعريف المسلمين ببعض تراثهم، فعلاوة عن تناولهم العرب والإسلام وما يتصل بهما من علوم ومباحث، فإنهم تمكنوا من الكشف عن أعلام ظلّوا مغمورين وأثاروا مسائل أيقظت الوعي لدى المسلمين وحثتهم على التفكير ومزيد الوعي بالذات.

هكذا فرغم ما تضمّنته إثارة مسألة إيجابيات الاستشراق من صعوبات لدى البعض، فإنّه لا يمكننا إغفال مساهمة مؤسسات الاستشراق في مدّ الجسور بين الشرق والغرب وتفعيل مجالي الحوار والوفاق بين الحضارات والثقافات.

ومن هذا المنطلق، بات من المفيد السّعي إلى ما يلي :

- ضرورة تكثيف اللقاءات العلميّة والفكريّة بين أهل التخصص كلّ في مجاله من المسلمين ومن الغربيّين.
- مزيد التعريف بأهمّ منجزات الاستشراق.

(54) المرجع نفسه ص 546.

- تثمين ما تمّ من نتاج في إطار الاستشراق وتصحيح ما يستوجب ذلك منه.
- تكوين وحدات بحث في اختصاصات دقيقة ومتكاملة.
- توسيع مجال الاستفادة من الاستشراق حتّى تتجاوز حدود الجامعات لتفيد مؤسسات أخرى.
- التفكير في توصية عمليّة قابلة للتنفيذ.
- ضمان استمراريّة التواصل المنظّم بين الشرق والغرب وتوفير المستلزمات المختلفة لذلك.